

المَشْرُوعُ وَالمَمْنُوعُ مِنَ التَّوَسُّلِ

تأليف

الدكتور عبد السلام بن برجس العبد الكريم

رحمه الله تعالى

١٣٨٧هـ - ١٤٢٥هـ

مقدِّمةٌ في
بيانِ عِظَمِ أَمْرِ التَّوحيدِ
وكَيْفَ دبَّ الشِّرْكُ في الأُمَّة

الحمد لله وصلَّى الله وسلَّم على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أمَّا بعد: فإنَّ الله سبحانه لم يخلق الخلق عبثاً، ولم يتركهم هملاً، لم يخلقهم ليستكثر بهم من قلَّة، ولا ليستقوي بهم من ضعف، وإنَّما خلقهم لأمرٍ عظيم، وخطبٍ جسيم، سخَّر لهم من أجله السَّماءَ والأرضَ، وما تقوم به حياتُهم. خلقهم ليعبدوه وليوحِّدوه وليُفردوه بكلِّ أنواع العبادة التي يحبّها اللَّهُ تعالى ويرضاها قولاً وفعلاً واعتقاداً.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾.

ولعظم هذا الأمر، وأهمِّيته؛ أنزل الله به كتبه، وبعث به رسله، كما قال تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾.

ولقد كان الناسُ أوَّلَ الأمرِ على الفطرة السليمةِ، والمنهج المستقيم، لا يعبدون إلاَّ اللَّهَ تعالى، فلمَّا دَبَّ إليهم داءُ الشِّرك باللَّه، أرسل اللَّهُ الرُّسل لينهوا عن الشرك، وليدعوا الناس إلى عبادةِ اللَّه وحده، كما قال تعالى: ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾.

وفي قراءة ابن مسعود وأُبيّ بن كعب: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾.

قال الله عزَّ وجل: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣) ﴾.

وقال تعالى ـ أيضاً ـ في بيان حال الناس أوّل الأمر: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩) ﴾.

فإنَّ آدم عليه السلام لمَّا مات، بقي أولادُه عشرةَ قرونٍ بعده على دين أبيهم، دين الإسلام، ثمَّ كفروا بعد ذلك، وسببُ كفرهم: الغلوُّ في حبِّ الصالحين، كما ذكر اللّهُ تعالى في قوله: ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا

﴿ سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ .

وذلك أنَّ هؤلاءِ الخمسةَ قومٌ صالحون، كانوا يأمرونهم وينهونهم، فماتوا في شهرٍ، فخاف أصحابُهُمْ من نقص الدِّين بعدهم، فصوَّروا صورة كلِّ رجلٍ في مجلسه، لأجل التَّذكرة بأقوالهم وأعمالهم إذا رأوا صورهم. ولم يعبدوهم.

ثمَّ حدث قرنٌ آخر، فعظَّموهم أشدَّ من تعظيم مَنْ قبلهم، ولم يعبدوهم.

ثمَّ طال الزَّمان، ومات أهلُ العلم.

فلمَّا خَلَتِ الأرض من العلماء: ألقى الشَّيطانُ في قلوب الجُهَّال: أنَّ أولئك الصالحين ما صوَّروا صور مشايخهم إلَّا ليستشفعوا بهم إلى الله، فعبدوهم.

فلمَّا فعلوا ذلك: أرسل الله إليهم نوحاً عليه السَّلام ليردّهم إلى دين آدم وذرِّيَّته، الذين مضوا قبل التَّبديل، فكان من أمرهم ما قصَّ الله في كتابه.

ثـمَّ عَمَـرَ نـوحٌ وأهـلُ السَّفينـة الأرضَ، وبارك اللَّـهُ فيهم، وانتشروا في الأرض أمماً، وبقوا على الإسلام مدَّةً لا ندري ما قدرها؟

ثمَّ حَدَثَ الشرك، فأرسل اللَّـهُ الرُّسلَ، وما من أمَّـةٍ إلاَّ وقـد بعث الله فيهـا رسولاً يأمرهم بالتَّوحيد، وينهاهم عن الشرك.

وهنـاك كثيرٌ مـن الرُّسـل وأُممهم لا نعـرفهم، لأنَّ الله لم يخبرنا عنهم، كما قال تعالى: ﴿ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾.

لكن أخبرنـا الله عن عـادٍ، التي لم يخلـق مثلها في البلاد. فبعث الله إليهم هوداً عليه السَّلام فكان من أمرهم ما قصَّ اللَّـهُ في كتابه.

وبقـي التوحيـد في أصحـاب هودٍ إلى أن عدم بعد مدَّةٍ، لا ندري كم هي.

ثـمَّ بَعَثَ اللَّـهُ إبراهيـم عليه السـلام، وليس على وجـه الأرض يـومئـذٍ مسلـمٌ، فجرى عليه

من قومه ما جرى، وآمنت به امرأتُهُ سارة، ثم آمن له لوطٌ عليه السلام.

ومنذ ظهر إبراهيم عليه السلام؛ لم يُعْدَم التوحيدُ في ذرِّيَّته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

وكان عليه السلام في أرض العراق، وبعد ما جرى عليه من قومه ما جرى هاجر إلى الشام واستوطنها، إلى أن مات فيها.

ولقد وهبته امرأتُه سارة جاريةً لها هي هاجر، فواقَعها، فولدت له إسماعيل عليه السلام، فغارت سارة، فأمَرَ الله بإبعاد هاجر عنها، فذهب بها وبابنها فأسكنها في مكَّة.

ثمَّ بعد ذلك وهب الله له ولسارةَ: إسحاق، ومن وراء إسحاق: يعقوب.

وقصَّته عليه السلام مفصَّلةٌ في الصَّحيح عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

وأصبحت ولاية البيت ومكَّة لإسماعيل عليه السلام، ثمَّ لذرِّيَّته من بعده، وانتشرت ذرِّيَّته في الحجاز، وكثروا، وكانوا على الإسلام دين إبراهيم وإسماعيل قروناً كثيرة. ولم يزالوا على ذلك حتَّى نشأ فيهم عمرو بن لُحَيّ، فابتدعَ الشرك، وغيَّر دين إبراهيم.

وقصَّتُهُ: أنَّه نشأ على أمرٍ عظيمٍ من المعروف والصَّدَقة، والحرص على أُمور الدِّين؛ فأحبَّهُ النَّاس حبّاً عظيماً، ودانوا له لأجل ذلك، حتَّى ملَّكوه عليهم، فصار ملكَ مكَّة، وولايةُ البيتِ بيده، وظنُّوا أنَّه من أكابر العلماء، وأفاضل الأولياء.

ثمَّ إنَّه سافر إلى الشَّام، فرآهم يعبدون الأوثان، فاستحسن ذلك وظنَّهُ حقّاً؛ لأنَّ الشام محلُّ الرُّسلِ والكتب، فلهم الفضيلة بذلك على أهل الحجاز وغيرهم؛ فرجع إلى مكَّة، وقَدِمَ معه بِهُبَل، وجعله في جوفِ الكعبة، ودعا أهل مكَّة إلى الشِّرك بالله، فأجابوه.

وأهل الحجاز في دينهم تبعٌ لأهلِ مكّة، لأنّهم وُلاةُ البيتِ وأهلُ الحرم؛ فتبعهم أهل الحجاز على ذلك، ظنّاً أنّه الحقّ.

وكانت الجاهلية على ذلك، وفيهم بقايا من دين إبراهيم لم يتركوه كلّه، ويظنُّون ــ أيضاً ــ أنّ ما هُم عليه، وأنّ ما أحدثه عمرو: بدعةٌ حسنة، لا تغيّرُ دين إبراهم.

وكانت تلبية نزار: (لبّيكَ لا شريكَ لك، إلّا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك).

ومن أقدم أصنامهم «مناة»، وكان منصوباً على ساحل البحر بقُديد، تعظّمه العربُ كلها، لكن الأوس والخزرج كانوا أشدَّ تعظيماً له من غيرهم.

ثمَّ اتخذوا «اللاّت» في الطائف، وقيل إنَّ أصله رجل صالح كان يلتُّ السويق للحاج، فمات، فعكفوا على قبره.

ثـمَّ اتَّخذوا «العزّى» بوادي نخلة، بين مكّة والطائف.

فهذه الثلاثة أكبر أوثانهم.

ثمَّ كثر الشِّرك، وكثرت الأصنام والأوثان في كلِّ بقعة من الحجاز.

فأرسل اللَّهُ سبحانه محمَّداً ﷺ ليخرجهم من الظُّلمات إلى النُّور، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾.

أرسله اللَّهُ سبحانه بالتَّحذير من الشرك والدَّعوة إلى التَّوحيد، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾﴾.

معنى ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾: ينذر عن الشرك ويدعو إلى التَّوحيد، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾، أي: عظِّمْهُ بالتَّوحيد، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾، أي: طهِّر أعمالك عن الشِّرك،

﴿ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ﴾: الرجز: الأصنام، وهجرها: تركها والبراءة منها ومن أهلها.

فلمّا أنذر ﷺ الناس استجاب له القليل، وأمّا الأكثر، فكما قال الله تعالى عنهم: ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ﴿٣٦﴾ ﴾، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿ بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾، أي: أخبر عن اللّهِ تعالى في شرعه وأمره كما أخبر المرسلون قبله، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَ ﴾.

ثمّ جرى على النبي ﷺ ما هو معلومٌ من سيرته وأخباره الشريفة، إلى أن أظهره الله، وأكمل له الدّين، كما قال تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾.

فتوفي رسول الله ﷺ وقد ترك أُمّته على المحجّة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلّا هالك.

قال أبو ذرٍّ رضي الله عنه: (لقد تركنا رسول الله ﷺ وما يحرك طائرٌ جناحيه في السَّماء إلاَّ ذكر لنا منه علماً). رواه أحمد، والطبراني وزاد: (قال رسول الله ﷺ: «ما بقي شيءٌ يقرِّبُ من الجنَّة ويباعد من النَّار إلاَّ وقد بيِّن لكم»).

ولقد أخبر النبي ﷺ أُمَّتَهُ عمَّا يكون إلى قيام السَّاعة، كما قال حذيفة رضي الله عنه: (قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً ما ترك شيئاً يكون في مقامه ذلك إلى قيام السَّاعة إلاَّ حدَّث به، حفظه من حفظه ونسيه من نسيه). أخرجه البخاري ومسلم.

وفي صحيح مسلم عن عمرو بن أخطب الأنصاري رضي الله عنه قال: (صلَّى بنا رسول الله ﷺ الفجر وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر، فنزل فصلَّى الظهر، ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصر، فنزل فصلَّى العصر، ثم صعد فخطبنا حتى غربت الشَّمس فأخبرنا بما كان وبما هو كائن، فأعلمُنا أحفظُنا).

ومن ذلك أنَّ النبيَّ ﷺ أخبر عن رجوع الشرك إلى هذه الأمَّة عند آخر الزمان، كما قال ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «لا تقوم السَّاعة حتى تضطرب أليات نساءِ دوس حول ذي الخَلَصَة» أخرجه البخاري ومسلم، وذو الخَلَصَةِ صَنَمٌ تعبدها دوسٌ في الجاهلية بِتَبالَةَ، وهي موضع باليمن.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يذهب اللَّيل والنَّهار حتَّى تعبد اللَّات والعزَّى». رواه مسلم.

وهذان الحديثان يوجبان على المسلم شدَّة الحذر من الوقوع في الإشراك بالله تعالى. فإنَّه فتنةٌ عظيمة، تضرَّع الأنبياء إلى الله تعالى في دفعه عنهم وتجنيبهم إيَّاه.

قال الله تعالى عن إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾.

فإذا كان الخليل إمام الحنفاء الذي جعله الله أمة وحده وابتلاه بكلمات فأتمهن، وقال عنه: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝٣٧﴾، وأمرَ بذبح ولده فامتثل أمر ربّه، وكسّر الأصنام واشتدّ نكيره على أهل الشّرك ومع ذلك يخافُ أن يقع في الشّرك الذي هو عبادة الأصنام؛ لعلمه أنّه لا يصرفه عنه إلّا الله بهدايته وتوفيقه، لا بحوله هو وقوّته. فما هو حال غيره من الناس؟

ورحم الله إبراهيم التيمي إذْ يقول: ومن يأمن البلاءَ بعد إبراهيم؟

فالشّرك أمر لا يؤمن الوقوع فيه.

وقد وقع فيه أُناسٌ من الأذكياء في هذه الأمّة بعد القرون المفضّلة، فبنيت المساجد والمشاهد على القبور وصرفت لها العبادات بأنواعها، واتّخذ ذلك ديناً، وهي أوثان وأصنام كأصنام قوم نوح.

والشّرك الأكبر إنّما يقع بوقوع مُقدّماته ووسائله، حتّى إذا اعتقدها النّاسُ ديناً نقلهم الشّيطان

إلى عبادة الأصنام والأوثان ــ المشاهد والقبور ونحوها ــ من دون الله تعالى فوقعوا في الشِّرك الذي لا يغفر اللّهُ لصاحبه.

ومن هنا فإنَّ الاهتمام بمعرفة الشِّرك ووسائله هو سبيل مَنْ خاف على نَفْسِه وبنيه وأهله الوقوعَ في ذلك.

والنَّاسُ في حاجة مَاسَّةٍ إلى تكثيف الطرح العلمي لهذه المسائل، وذلك لعظم فشوّها وكثرة المخدوعين بها في أكثر أنحاء الأرض.

ومن هنا جاءت محاضرة هذه اللَّيلة، بالعنوان الذي سمعتم: «التوسل: أحكامه وأنواعه». وهو موضوعٌ في غايةِ الأهميَّة، يجدر بالمسلم والمسلمة معرفتُهُ وتَفَهُّمُهُ، إذِ الجهلُ بِهِ سببٌ رئيسٌ لتفشّي الشِّرك بنوعيه الأكبر والأصغر.

كما أنَّ هذا الموضوعَ قد امتدَّت يَدُ بعض أهلِ الأهواء إليه، فَعَبَثَتْ بِهِ، حيث دعت إلى الإشراك بالله

تعالى تحت مسمَّى التَّوسُّلِ؛ فضلُّوا وأضلُّوا كثيراً وضلُّوا عن سواء السَّبيل.

ولا عاصم من الوقوع في حبائل هؤلاءِ إلاَّ اللَّهُ وحده، ثمَّ العلمُ الشرعي الذي هو جُنَّةٌ من كلِّ ضلالة وحماية من كلِّ بدعة؛ فـ «من يردِ اللَّهُ بِهِ خيراً يفقِّهه في الدِّين»، فالتفقُّهُ في هذا الموضوعِ أمرٌ محمودٌ؛ بِهِ يَسْلَمُ المسلمُ من الشُّبَهِ الخطَّافة فيه، وبِهِ يحمل سلاحَ العلم الذي يضرب بـه هام أهل الأهواء، وبِـهِ يعبد اللَّهَ على بصيرةٍ من دينه.

وفي هذه المحاضرة سوف أتقدَّمُ إليكم أيُّها الأحِبَّة ببعض المعلومات المهمَّة في هذا الباب، سائلاً المولى جلَّ وعلا الإعانة والتوفيق.

* * *

معنى التَّوسُّل لغةً وشرعاً

إنَّ أول عناصر هذه المحاضرة الكلامُ على معنى التَّوسُّلِ في لغـةِ العربِ وفي كـلام الشارع . إذ إنَّ أكثر من ضَلَّ في هذا الباب إنَّما ضَلَّ بسببِ عدم معرفة معنى التَّوسُّل في لغة العرب وفي كـلام الشـارع، فَجَعَلَ للتَّوَسُّلِ معنًى غيرَ واردٍ في اللّغة غير واردٍ في كلام الشرع؛ فوقع في الهلكة .

فالتَّوسُّل في كلام العربِ له معانٍ :

منهـا : أنَّ التَّـوسُّـلَ هـو التقرُّب . فالوسيلة : القربة؛ قـال في القـامـوس : «وسَّل إلى الله تعالى توسيلاً : عَمِلَ عملاً تقرَّبَ بِهِ إليه، كتوسَّلَ» .

وهذا المعنى هـو الذي يخصُّ موضـوعنا هـذا فلنقتصر عليه .

والتَّوسُّلُ في كلام الشرعِ ورد في آيتين من كتاب الله تعالى:

الأولى في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٣٥ ﴾.

والآية الثانية في سورة الإسراء وهي قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧ ﴾.

فما معنى التَّوسُّل في هاتين الآيتين:

أمّا الآية الأولى فإنَّ معنى الوسيلة في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾: القُرْبَةُ، قاله ابن عبَّاس، وعطاء، ومجاهد، والفرّاء.

وقال قتادةُ: تقرّبوا إليه بما يرضيه.

قال أبو عبيدة: يقال: تَوَسَّلْتُ إليه أي تَقرَّبْتُ إليه، وأنشد:

إذا غَفَلَ الواشون عدنا لِوَصْلنا
وعاد التَّصافي بيننا والوسائل

وقيل: معنى الوسيلة: **المحبَّة**. قاله ابن زيد. فالمعنى تَحَبَّبوا إلى الله.

وهذا ليس اختلاف تَضادٍّ بل اختلاف تنوُّع؛ لأن التحبُّبَ إلى الله تعالى نوعٌ من أنواع التقرُّب إليه.

فالخلاصة أنَّ معنى قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾، أي: أطلبوا ما يقرِّبكم إليه من طاعته سبحانه.

وهذا المعنى لا خلاف بين المفسِّرين فيه، كما قال ابن كثير رحمه الله تعالى.

أمَّا الآية الثانية فإنَّ معنى قوله: ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾، أي: يطلبون إلى ربِّهم القربة

بالطاعة. كما في «تفسير الجلالين» وغيره من التفاسير.

فتبيَّن بهذا أنَّ المعنى الشرعي للوسيلة هي القربةُ. وهي كذلك في لغة العرب.

* * *

إذا عُلِمَ هذا، فإنَّ بَعْضَ الناس أخطأ في تفسير كلمة «الوسيلة» مما فَتَحَ بَابَ شَرٍّ عظيم على المسلمين في عقائدهم.

فقد ذكر العلاَّمة الشنقيطي رحمه الله: **أنَّ بعضَ الصوفيةِ فَسَّر الوسيلة في الآية الكريمة من سورة المائدة بأنَّها: «الشيخُ الذي يكون له واسطة بينه وبين ربِّه»!!!**

وهذا ضلالٌ عميم وافتراءٌ مبين وتَقَوُّلٌ على اللّه ربِّ العالمين.

ومن النَّاس من يعتقد أنَّ الوسيلة هي ذواتُ الأنبياء والصَّالحين والأولياء. وكلُّ هذا باطلٌ لا أثارةَ من علمٍ عليه.

وأقوال الصحابة والتابعين في تفسير الوسيلة تُبيِّنُ أنَّ تفسير الوسيلة بالشيخ أو بالذوات، خطأ كبير، لا يقرُّه الشَّرع المطهَّر ولا يرضاه.

وبيانُ ذلك أنَّ السلف متَّفقون جميعاً على أنَّ الوسيلة في قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ هي القربةُ إلى الله بطاعته. وكذا في قوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾.

شروط صحَّة العبادة:

والقربةُ إلى الله تعالى يُشترط فيها أمرانِ نصَّ عليهما كتابُ ربنا تبارك وتعالى، وسنَّة نبيِّنا محمَّد ﷺ، واتَّفق عليهما سلفُ هذه الأمة:

الأمر الأول: الإخلاصُ لله تعالى في هذه القربة. كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾، وكما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾، وقال: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١٤﴾.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: يقول الله تبارك وتعالى: «أنا أغنى الشُّركاء عن الشِّرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشريكه». وخَرَّجه ابن ماجه، ولفظه: «فأنا منه بريء، وهو للَّذي أشرك».

الأمر الثاني: أن تكون هذه القربة ممَّا كان عليه رسول الله ﷺ. **فكلُّ عبادةٍ لم يفعلها رسول الله ﷺ ولم يشْرَعها فليست ممَّا يتقرَّبُ بِهِ إلى الله تعالى، وإن** كان القائمُ بها صحيحَ النيَّة مخلصاً لله تبارك وتعالى؛ لأنَّ الله تعالى تَعَبَّدنا بما شرعه تعالى على لسان رسوله ﷺ لا بما رأتْهُ أذهاننا ومالت إليه أهواؤنا.

قال تعالى: ﴿ **اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ** ﴾، وقال تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾.

وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أحدث في

أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ»، وفي رواية لمسلم: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ».

فالمتقرِّب إلى الله تعالى بعبادةٍ ليس عليها أمر النبيِّ ﷺ خاسِرٌ آثم، ولو كان مخلصاً لله سبحانه وتعالى.

وقد أخرج البيهقي وغيره: عن سعيد بن المسيب رحمه الله أنَّه رأى رجلاً يصلِّي بعد طلوع الفجر أكثر من ركعتين يكثر فيهما الركوع والسجود فنهاه. فقال: يا أبا محمد: يعذِّبني اللّهُ على الصَّلاة؟ فقال ابن المسيب: لا ولكن يعذِّبك على خلاف السُّنَّة.

* * *

إذا عُلِمَ ما تَقَدَّم فننظر إلى كلِّ توسُّل هل توفَّر فيه هذان الأمران أم لا؟ هل فيه إخلاصٌ لله، هل هو مِمَّا كان عليه أمر النبيِّ ﷺ أم لا؟

* * *

أقسام التَّوسُّل

ننتقل إلى فقرة أُخرى في هذا الموضوع، هي: أنَّ التَّوسُّل يَنْقَسِمُ إلى قِسْمَيْن: توسُّلٌ مشروع، وتوسُّلٌ ممنوع.

فما هو التَّوسُّلُ المشروع وما أدِلّته؟ وما هو التَّوسُّل الممنوع وما أدِلَّةُ منعه؟

التَّوسُّلُ المشروع:

أمّا التَّوسُّل المشروع: فإنَّنا نعلم أنَّ الله أمَرَنا أن ندعوه وحده لا شريك له. وأنَّ الدُّعاء عبادة عظيمة لا يجوز صرفها لغير الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾، وقال: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾، وقال:

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

وقد شَرَع الله تعالى لنا أن ندعوهُ على صِيَغٍ متعدِّدة:

١ ـ فَأَمَرَنا تعالى أن ندعوه بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى، فنقول ـ مثلاً ـ: اللّهم إنّي أسألك بأنّك أنت الله لا إله إلاّ أنت الحيُّ القيوم أن تغفر لي ذنوبي، أو تقيل عثرتي، أو تشفي مريضي...

٢ ـ وشرع تعالى لنا أن ندعوه بالأعمال الصالحة التي قمنا بها، فنقول مثلاً: اللّهم بإيماني بك وتصديقي برسولك محمَّد ﷺ واتّباعي له اغفر لي وارحمني، أو أَقِل عثرتي، أو أَشفِ مريضي.

٣ ـ وشرع تعالى لنا نوعاً آخر في سؤاله تعالى: وهو أن نأتي إلى صالح من الصالحين في حال حياته وحضرته، فنقول له: يا فلان، أدعُ الله لنا

أن يثبِّتنا، أو يغفر لنا، أو يشفي مريضنا. . ونحو ذلك.

فهذه ـ أيُها الأحِبَّةُ ـ ثلاث صور نتوسَّلُ إلى الله تعالى بها في دعائنا، شرعها تعالى، وسَنَّها رسولنا محمَّد ﷺ.

إذن فالتَّوسُّلُ المشروع:

هو ما دَلَّ عليه دليلٌ من كتاب الله، أو سنَّة رسوله ﷺ.

وهنا قد يقول قائل: هل التَّوسُّلُ خاصٌ بالدُّعاء، أم أنه يكون بالدُّعاء وغيره؟

والجواب: إنَّ التَّوسُّلَ هو التقرُّبُ إلى الله تعالى بكلِّ أنواع العبادة التي يحبُّها ويرضاها، ومنها الدُّعاء. فالدُّعاء وسيلة إلى الله. والخوف منه تعالى وسيلة إليه. والتوكُّل عليه تعالى وسيلة إليه. . وهكذا.

لكنْ لمَّا كانت الشُّبَه المثارة حولَ التَّوسُّلِ إنَّما

هي في الدعاءِ اْهتم أهل الحقِّ بهذا النوعِ من أنواع التَّوسُّلِ فبيَّنوا الجائز منه والممنوع.

فالتَّوسُّل المشروع في الدعاء أنواعٌ ثلاثة ــ كما تقدَّم ــ.

أمَّا الأول: فهو التَّوسُّل إلى الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى وأفعاله الحميدة، وقد دلَّ عليه قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾.

ومثل الأسماء الحسنى: الصفاتُ العُلى، لأنَّ الاسم دالٌّ على الصفة التي اشتُقَّ منها.

وأسماء الله الحسنى غيرُ محصورةٍ بعددٍ، كما دلَّ عليه حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في مسند الإمام أحمد ــ وغيره ــ أنَّ النبي ﷺ قال: «ما أصاب أحداً قطُّ همٌّ ولا حزنٌ فقال: (اللّهم إنِّي عبدك وابن عبدك وابن أَمَتك ناصيتي بيدك ماضٍ فيَّ

حكمك عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكلِّ اسم هو لك سمَّيت بِهِ نفسك أو أنزلته في كتابك أو علَّمته أحداً من خلقك أو استأثرت بِهِ في علم الغيب عندك؛ أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همِّي) إلاَّ أذهب الله حزنه وهمَّه وأبدل مكانه فرحاً».

وهذا الحديث فيه التَّوسُّلُ إلى الله تعالى بأسمائه الحسنى.

وقد كان الأنبياء والصالحون يتوسَّلون إلى الله بأسمائه وصفاته، كما قال تعالى عن عبده سليمان عليه السَّلام: ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾، فهذا توسُّل بالصفة.

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبيُّ ﷺ يأمرنا إذا أخذنا مضجعنا أن

نقول: (اللَّهم ربَّ السماوات والأرض وربَّ العرش العظيم ربَّنا وربَّ كلِّ شيء فالقَ الحبِّ والنوى ومُنْزِلَ التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شرِّ كلِّ شيء أنت آخذٌ بناصيته، اللَّهم أنت الأوَّل فليس قبلك شيءٌ وأنت الآخِرُ فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيءٌ، اقضِ عنَّا الدَّين وأغننا من الفقر).

وفي جامع الترمذي عن أنس رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أَلِظُّوا بيا ذا الجلال والإكرام»، أي: الزموا هذه الصيغة في دعائكم وأكثروا منها.

وفي المسند والسنن: عن أنس رضي الله عنه أنَّه كان جالساً مع النبيِّ ﷺ ورجلٌ قائمٌ يصلِّي، فلمَّا ركع وسَجَدَ وتَشَهَّد، دعا فقال في دعائه: (اللَّهم إنِّي أسألك بأنَّ لك الحمدَ لا إله إلاَّ أنت المنَّان، بديعُ السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حيُّ يا قيُّوم، إنِّي أسألك...) فقال

النبي ﷺ لأصحابه: «أتدرون بما دعا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «والذي نفسي بيده لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سُئل به أعطى». هذا لفظ النسائي.

وسمع النبيّ ﷺ رجلاً يقول في تشهُّده: (اللّهمَّ إني أسألك يا اَللّهُ بأنك الواحدُ الأحدُ الصمدُ الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحدٌ أن تغفر لي ذنوبي إنَّك أنت الغفور الرحيم). فقال ﷺ: «قد غفر له»، ثلاثاً. أخرجه النسائي عن محجن بن الأدرع.

فهذه أمثلةٌ ـ والأمثلة كثيرة ـ على التَّوسُّل إلى الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العُلى. فعلى المسلمِ أنْ يلزم ذلك في دعائه فهو بها أحرى للإجابة.

النوع الثاني من أنواع التوسُّل المشروع في الدعاء: أن يتوسَّلَ المسلمُ إلى الله تعالى بعملٍ صالحٍ قد فَعَلَهُ:

وأدلَّةُ ذلك كثيرة جداً، منها قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾.

ومنها قول الله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

ومنها قوله تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾.

ومنها قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾.

وفي المسند وسنن أبي داود عن بريدة بن الحصيب رضي الله عنه قال: سمع النبيّ ﷺ رجلاً يقول: (اللّٰهم إنّي أسألك بأنّي أشهد أنّك أنت الله لا إله إلاّ أنت الأحد الصّمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد). فقال: «قد سأل الله

باسمه الأعظم الذي إذا سُئل به أعطى وإذا دُعي به أجاب».

فهذا الرَّجل توسَّل إلى الله بعملٍ صالحٍ وهو شهادة الإخلاص، وكونه عليها قولاً وفعلاً واعتقاداً.

ومن هذا قصَّة أصحاب الغار التي رواها عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ: وهي قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: «انطلق ثلاثة نفرٍ ممن كان قبلكم حتَّى آواهم المبيت إلى غارٍ فدخلوه. فانحدرت صخرةٌ من الجبل فسدَّت عليهم الغار. فقالوا إنَّه لا ينجيكم من هذه الصَّخرةِ إلاَّ أنْ تدعوا الله بصالح أعمالكم.

قال رجل منهم: اللَّهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنتُ لا أَغبقُ قبلهما أهلاً ولا مالاً ــ يعني من رقيق وخادم ــ فنأى بي طلب الشجر يوماً فلم أُرِحْ عليهما ــ أي: أرجع عليهما ــ حتى ناما، فحلبتُ لهما غَبُوقهما فوجدتهما نائمَيْن، فكرهتُ أن أوقظهما وأن أَغْبِقَ قبلهما أهلاً أو مالاً. فلبثتُ

والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى بَرَقَ الفجرُ والصبية يتضاغون عند قدمي، فاستيقظا فشربا غبوقهما.

اللّهم إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاءَ وَجْهِكَ ففرِّج عنّا ما نحنُ فيه من هذه الصَّخرة.

فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه.

وقال الآخر: اللّهم إنه كانت لي ابنةُ عمٍّ كانت أحبَّ الناسِ إليَّ، فأردتها على نفسها فامتنعت منّي. حتَّى أَلَمَّت بها سَنَةٌ من السِّنين. فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلِّي بيني وبين نفسها، ففعلت حتى إذا قدرت عليها ـ وفي رواية: فلمَّا قعدتُ بين رجليها ـ قالت: أتَّقِ الله ولا تفضَّ الخاتم إلاَّ بحقّه. فانصرفتُ عنها وهي أحبُّ الناس إليَّ، وتركت الذهب الذي أعطيتها.

اللّهم إن كنت فعلتُ ذلك ابتغاء وجهك فأفْرُج عنّا ما نحن فيه.

فانفرجت الصَّخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.

وقال الثالث: اللّهم استأجرتُ أُجراءَ وأعطيتهم أجرهم غيرَ رجلٍ واحدٍ ترك الذي له وذهب. فثمَّرتُ أجره حتَّى كثرت منه الأموال. فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله، أَدِّ إليَّ أجري. فقلت: كلّ ما ترى من أجرك، من الإبل والبقر والغنم والرَّقيق. فقال: يا عبد الله لا تستهزىء بي فقلت: إنِّي لا أستهزىء بك، فأخذه كلّه فاستاقه فلم يترك منه شيئاً.

اللّهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فَافْرُجْ عنَّا ما نحن فيه.

فانفرجتِ الصَّخرة فخرجوا يمشون»، متفق عليه.

فهذا دليلٌ واضحٌ في التَّوسُّلِ إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة؛ إذْ إنَّ هؤلاءِ النَّفر توسَّلوا إلى الله في حال الشِّدَّةِ بما أسلفوا من أعمالٍ صالحةٍ.

حيث توسَّلَ الأوَّل ببرِّ والديه والرَّأفة بهما والشَّفقة عليهما. وهذا من الأعمال التي أمَرَ الله بها وحثَّ عليها، فقال: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾.

والثاني توسَّلَ إلى الله بالعِفَّة عن الزنا بعد ما قدر عليه من امرأةٍ شغفته حبّاً. وهذا من الأعمال الصالحة؛ قال تعالى عن عباده الصالحين: ﴿ وَلَا يَزْنُونَ ﴾.

والثالث توسَّلَ إلى الله تعالى بحفظه للأمانة، وأدائه لها، وذلك بِحفظ حقِّ الأجير وإيفائه إيَّاه دون نقص؛ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ﴾.

فلمَّا فعلوا ذلك فرَّج الله كربتهم، وأزال عنهم الشِّدَّة التي وقعوا فيها.

وهذا فيه تنبيهٌ على فائدة التَّوسُّل إلى الله بالأعمال الصالحة، وهي: أنَّ ذلك أحرى بالإجابة.

ومثل هذا يقال في التَّوسُّل إلى الله بأسمائه وصفاته: فإنَّ ذلك من أسباب إجابة الدُّعاء؛ ولذا فإنَّ

النبيّ ﷺ لمّا سمع الرَّجُل الذي يقول: (اللّهمَّ إني أسألك يا اللّهُ بأنّك الواحد الأحد الصَّمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد أن تغفر لي ذنوبي). فقال ﷺ: «قد غفر له» ثلاثاً.

النوع الثالث: التَّوسُّلُ إلى الله تعالى بدعاءِ أحد الأحياء الحاضرين ممَّن عُرِف بالصَّلاح والاستقامة.

وأدلَّة ذلك كثيرة في الكتاب والسُّنَّة.

منها: قول الله تعالى عن إخوة يوسف: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ۝ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝﴾، فقد طلبوا من أبيهم يعقوب عليه السلام وهو حيٌّ حاضر أن يستغفر اللّهَ لهم.

ومثل هذا ما شُرع للمؤمنين من إتيانهم النبيَّ ﷺ في حال حياته لأجل أن يستغفر الله لهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ۝﴾.

وهذا في حال حياته، أمَّا بَعْدَ مماته فإنه لا يجوز لنا أن نطلبَ منه أن يستغفر لنا، وإنَّما نَطْلُبُ من صالح حيٍّ حاضر. كما كان الصَّحابة رضي الله عنهم يفعلون ذلك، ولذا فإنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه طلب من العبَّاس أن يدعو الله لهم، وذلك بعد موت النبيِّ ﷺ.

وممَّا يدلُّ على مشروعيَّة هذا النَّوع من التَّوسُّل حديث الأعرابي الذي جاء إلى النبيِّ ﷺ، فقال: يا رسول الله، هلك المال وجاع العيال فادع الله لنا أن يغيثنا. فرفع النبيّ ﷺ يديه يدعو.

وتأمَّل حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قُحِطُوا استسقى بالعبَّاس بن عبد المطلب فقال: (اللَّهم إنَّا كنَّا نتوسَّلُ إليك بنبيِّنا ﷺ فتسقينا، وإنَّا نتوسَّلُ إليك بعمِّ نبيِّنا فاسقنا). قال: فيُسقون. رواه البخاري.

أي: فكان العبَّاس رضي الله عنه يدعو الله فيُسقون.

فهذا الحديث فيه دلالة على مشروعيَّة الطلب من الحيِّ الحاضر الصالح أن يدعو اللّٰهَ تعالى لك.

ومن ذلك ما ثبت عن سليم بن عامر الخبائري أنَّ السَّماء قحطت فخرج معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وأهلُ دمشق يستسقون. فلمَّا قعد معاوية على المنبر قال: أين يزيد بن الأسود الجرشي؟ فناداه الناس. فأقبل يتخطَّى الناس. فأمره معاوية، فصعد المنبر، فقعد ــ أي معاوية ــ عند رجليه، فقال معاوية: (اللَّهم إنَّا نستشفع إليك اليومَ بخيرنا وأفضلنا. اللَّهم نستشفع إليك اليوم بيزيد بن الأسود الجرشيِّ. يا يزيدُ ارفع يديك إلى الله). فرفع يديه، ورفع الناس أيديهم.

وفي هذا ما يدلّ على مشروعيَّة هذا النَّوع من التَّوسُّل، حيث طلب معاوية رضي الله عنه من يزيد بن الأسود وهو حاضر أن يدعو الله لهم.

ولذا، فإنَّ الفقهاء ينصُّون في صلاة الاستسقاء على استحباب التَّوسُّل بصالحٍ حيٍّ حاضر ليكون أقربَ إلى الإجابةَ.

وبهذا القدر ننتهي من صور التَّوسُّل المشروع في باب الدُّعاء.

وكلُّه داخل تحت قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾.

* * *

التوسُّل المنوَّع شرعاً

ننتقل إلى القسم الثاني من أقسام التَّوسُّل، وهو التَّوسُّل الممنوع شرعاً:

وهو كلُّ توسُّل لم يَقُمْ عليه دليل من كتاب الله أو سنَّةِ رسوله ﷺ.

ولنقتصر في التمثيل على ذلك بالتَّوسُّلات المتعلِّقة بالدُّعاءِ، فالتَّوسُّل غير المشروعِ كالتَّوسُّلِ إلى الله بذوات الأنبياء والرُّسل والصَّالحين من عباد الله: فتقول مثلاً: اللَّهم إنِّي أتوسَّلُ إليك بنبيِّك محمَّدٍ ﷺ أو بأبي بكر أو بالشيخ فلان أن تغفر لي وترحمني.

وكذلك التَّوسُّل بالأماكن الفاضلة والأزمنة الفاضلة، فتقول: اللَّهم إنِّي أتوسَّل إليك بالكعبة،

واللَّهم برمضان وليلة القدر أن تغفر لي. . ونحو ذلك.

فَكُلُّ هـذه الصور محرَّمـةٌ شرعاً، وهي من أشرِّ البـدع؛ إذْ لـم يقـم دليل مـن الكتاب أو السُّنَّـة عـلى مشروعيَّة شيءٍ منها.

وهذه هي التَّوسُّلات الواردة في الكتاب والسُّنَّة ومـا جاء عن سلف هذه الأمَّة ليس فيها توسُّلٌ إلى الله بذوات المخلوقين.

وهذا القول هو قولُ جماهير الأُمَّة:

يقول شيخ الإسلام في كتاب «الاستغاثة»: «ما زلـتُ أبحثُ وأكشف مـا أمكنني مـن كـلام السَّلف والأئمَّـة والعلماءِ، هـل جَـوَّز أحدٌ منهم التَّوسُّـل بالصَّالحيـن في الدُّعاء؟ أو فعل ذلك أحدٌ منهم؟ فما وجدته.

ثـمَّ وقفتُ على فتياً للفقيه أبي محمـد بـن عبد السـلام أفتى بـأنه: (لا يجوز التَّوسُّـل بغير

النبي ﷺ، رأما النبي مجوِّزَ التَّوسُّلَ بِهِ إن صحَّ الحديث في ذلك).

وهذا الذي ذهب إليه أبو محمَّد رحمه الله ليس بصحيح؛ إذ لم يسبقه أحدٌ من السَّلف إلى هذا، ودليله ليس بصريح في المسألة كما سيأتي، بل ليس فيه دلالة على ما ذهب إليه.

وقد اشتدَّ إنكار أهل العلم للتَّوسُّل بالذواتِ:

فأبو حنيفة رحمه الله تعالى يقول: لا ينبغي لأحدٍ أنْ يدعو الله إلاَّ بِهِ.

والدُّعاءُ المأذون فيه المأمور بِهِ ما استُفيد من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾.

قال أبو يوسف رحمه الله: أكره أن يقول: بحقِّ فلان، أو بحقِّ أنبيائك ورُسلك، وبحقِّ البيت الحرام والمشعر الحرام. اهـ.

قال القُدوري: المسألة بخلقه لا تجوز؛ لأنَّه لا حقَّ للمخلوق على الخالق، فلا تجوز وفاقاً.

فهذا قولُ أئمَّة الحنفية رحمهم الله تعالى فلسنا نُحَرِّم التَّوسُّل بذوات المخلوقات وحدنا، وإنَّما هو قول أهل العلم قبلنا. ولولا خشية الإطالة لسُقْنا نصوصهم على نحو ما سقناه عن أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله تعالى.



الفرق بين التَّوسُّل بذوات المخلوقات إلى الله ودعاء المخلوق من دون الله تعالى

بقي مسألتان مهمَّتان:

الأولى: أنَّه يجب التفريق بين التَّوسُّلِ بذوات المخلوقات إلى الله تعالى وبين دعاء المخلوق وسؤاله من دون الله تعالى.

فمثال التَّوسُّلِ بذات المخلوق أو بجاهه أن يقول القائل: اللَّهم اغفر لي وارحمني وأدخلني الجنَّة بنبيِّك محمَّد ﷺ أو بجاه نبيِّك محمَّد ﷺ فهذا بدعة ليس بِشِرْك.

فإن كان المتوسَّل به غير النبيّ ﷺ فهو شرك أصغر لا يخرج من المِلَّة. كقوله: اللَّهم بجاه العباس أو عبد القادر.. ونحو ذلك.

وأمَّا دعاء المخلوق كما يدعو الله تعالى،

فيقول: يا رسول الله فرِّج كربي، أو أقضي دَيْني، أو اشفِ مريضي: فهذا ليس توسُّلاً، وإنَّما هو شركٌ أكبر يخرج صاحبه من الملَّة؛ لأنَّ الدُّعاءَ عبادة، وصرف العبادة لغير الله شِرْكٌ أكبر بالإجماع؛ قال تعالى لنبيِّه محمَّد ﷺ: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ

هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِهِۦۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾.

فهذا حكم مَنْ دعا غير الله فيما لا يقدر عليه إلاَّ الله سبحانه وتعالى. فلا يلتبس هذا بمسألة التَّوسُّل. فالتَّوسُّلُ شيءٌ ودعاء غير الله شيءٌ آخر.

المسألة الثانية: لا دليل على جواز التَّوسُّل بذوات المخلوقات:

ليس مع من أجاز التَّوسُّل بذوات المخلوقات دليل سليم، فالأدلَّة إمَّا صحيح غير صريح بل لا دلالة فيه. وإمَّا دليل غير صحيح من جهة الإسناد.
فمن ذلك: الاستدلال على التَّوسُّلِ بالذوات بحديث أنس رضي الله عنه في صحيح البخاري: أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال: (اللَّهم إنَّا كنَّا

نتوسَّل إليك بنبيِّنا فتسقينا، وإنَّا نتوسَّل إليك بعمِّ نبيِّنا فاسقنا). قال: فيسقون.

فبعض الناس يعتقد أنَّ هذا التَّوسُّلَ هو بجاه العبَّاس، وهذا ليس بصحيح؛ بل هذا التَّوسُّلُ إنَّما هو بدعاء العبَّاس رضي الله عنه، كما كانوا مع النبيِّ ﷺ؛ فإنَّ الصحابة كانوا يأتونه ﷺ في حال حياته ويتوسَّلون بِهِ، أي: يطلبون منه ﷺ أن يدعو الله لهم، كما جاء في حديث الأعرابيِّ الذي جاء إلى المسجد يوم الجمعة والنبيُّ ﷺ يخطب فطلب من النبيِّ ﷺ أن يستسقي لهم فدعا الله فسقوا. ثمَّ جاء الأعرابيُّ الجمعة التالية فشكى إلى النبيِّ ﷺ انقطاع الطرق وتهدُّم المباني وطلب منه أن يدعو الله لهم ليمسك عنهم الأمطار...

فهذا هو التَّوسُّلُ المشروع.

وتأمَّل كيف عَدَلَ عمر رضي الله عنه عن التَّوسُّل بالنبيِّ ﷺ إلى التوسُّل بدعاء العبَّاس رضي الله عنه لعلمه أنَّ التَّوسُّل به ﷺ بعد موته متعذِّر، لأنَّ الدُّعاء

منه ﷺ لله تعالى عبادة، فهي عمل قد انقطع بعد موته ﷺ.

وممَّا يُبْطِلُ حمل أثر عمر رضي الله عنه هذا على التَّوسُّل بالجاه: ما ذكره الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى من صفة دعاء العبَّاس، حيث ذكر الحافظ أنَّ: الزبير بن بكار أخرج في كتاب «الأنساب» له: أنَّ العبَّاس لما استسقى به عمر قال: (اللَّهم إنَّه لم ينزل بلاء إلَّا بذنب ولم يكشف إلَّا بتوبة. وقد توجَّه القوم بي إليك لمكاني من نبيِّك. وهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث).

هذا هو التَّوسُّل الذي طلبه عمر وغيره من الصَّحابة من العبَّاس رضي الله عنه: طلبوا منه أن يدعو الله لهم. فكيف يقال: إنَّهم توسَّلوا إلى الله بجاه العبَّاس وذاته؟ حاشاهم من ذلك.

وقد أخرج الإسماعيلي في «مستخرجه» على الصَّحيح هذا الحديث بلفظ: «كانوا إذا قحطوا على

عهد النبيّ ﷺ استسقوا به، فيستسقي لهم، فيسقون، فلمّا كان في إمارة عمر . . . » إلخ.

فهذا فيه دلالة صريحة على أنّ توسُّلهم به ﷺ كان حال حياته.

ومن الشبه في هذا الموضوع الاستدلال بحديث عثمان بن حنيف رضي الله عنه، وهو: أنّ رَجُلاً ضرير البصر أتى النبيّ ﷺ. فقال: أدعُ الله أن يعافيني. فقال: «إن شئت دعوت لك. وإن شئت صبرت فهو خير لك». فقال: ادعه. فأمره أن يتوضّأ فيحسن وضوءه فيصلّي ركعتين ويدعو بهذا الدُّعاء: (اللّهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيّك محمّد نبيّ الرّحمة. يا محمّد إنّي توجّهت بك إلى ربي في حاجتي هذه فَتُقْضَىٰ لي، اللّهم فشفّعْهُ فيّ). قال: ففعل الرجل فبرأ. أخرجه أحمد وغيره بسند صحيح.

وهذا الحديث لا حجّة فيه على التّوسُّل

بالذَّات: بل هو توسُّلٌ إلى الله بدعاءِ النبيِّ ﷺ حال حياته. وهو توسُّلٌ مشروع.

ويدلُّ على هذا أنَّ الأعمى جاء إلى النبيِّ ﷺ فقال: «ادعُ الله أن يعافيني».

ثمّ إنَّ النبي ﷺ وعده بالدعاء فقال: «إن شئت دعوت لك وإن شئت...».

ثم إنَّ الأعمى أصرَّ على النبي ﷺ بطلب الدُّعاء بقوله: «ادعه».

ثم ــ أيضاً ــ: قول الأعمى في دعائه (اللّهم فشفِّعْهُ فيَّ) ينفي التَّوسُّل بالذات؛ إذ الشَّفاعة هي الدُّعاء، والمعنى: اللّهم اقبل شفاعته ﷺ فيَّ، أي: دعاءه فيَّ.

وقد ورد في بعض روايات الحديث: (اللّهم فشفِّعْهُ فيَّ وشفِّعْني فيه) وكيف تكون شفاعة الأعمى له ﷺ؟! المعنى: اقبل سؤالي لك في أن يشفع فيَّ نبيّك ﷺ.

فكلُّ ما تقدَّم يدلُّ على أنَّ قول الأعمى: (اللّهمَّ إني أسألك وأتوجَّه إليك بنبيّك نبيّ الرَّحمة) فيه محذوف، تقديره: أسألك وأتوجَّه إليك بدعاء نبيّك عليه الصَّلاة والسَّلام.

* * *

ليس معنى القول بمنع التَّوسُّل بـذوات الأنبياء والصالحين أن ليس لهم قدر وجاه

أيُّها الأحِبَّة: إنَّ إنكارنا للتَّوسُّل به ﷺ بعد موته، وكذا التَّوسُّل بغيره من الأنبياء والصالحين، لا يعني أنَّنا نعتقد أن لا جاه لهم ولا قدر، أو أنَّنا نبغضهم ـ كما يقول المفترون ـ حاشا لله فهو ﷺ بأبي وأمي أَحَبُّ إلينا من أنفسنا وأهلينا وأموالنا. ومنزلته ﷺ منزلة رفيعة؛ إذ لا يصحّ إيمان أحدٍ إلاَّ بالإيمان به ﷺ ولا يصحّ إيمان أحدٍ إلاَّ بمحبَّته ﷺ.

ولكن من محبَّتنا لرسولنا ﷺ أن لا نعبدَ الله إلاَّ بما شرَع لنا عليه الصَّلاة والسَّلام، وهو ﷺ قد حذَّرنا من الابتداع في الدِّين وأَمَرَنا بلزوم ما هو عليه ﷺ وصحابتُه رضي الله عنهم.

فالزِّيادة على ذلك هي النُّقصان والخسران، وهي التي تتضمَّن القَدْح في النبيّ ﷺ، وفي بيانه للشَّريعة المطهَّرة، التي أكملها الله تعالى على يديه الشريفتين.

فهذه العبارات التي تطلق؛ وهي: (أنَّ من لم يجوِّز التَّوسُّل بِهِ ﷺ مبغضٌ له): افتراءٌ ودجل، يُراد به صرف الناس عن عبادة الله وحده، ومتابعة رسول الله ﷺ، إلى اتِّباع الأهواء والآراء والاستحسانات.

وخُذ صورةً واضحةً تبيِّن لك أنَّ تعظيم النبيّ ﷺ وتوقيره إنَّما يكون على ما جاء به الشَّرع لا ما أملاه الهوى، يقول أنس بن مالك ــ رضي الله عنه ــ : (ما كان أحد أحبّ إليهم من رسول الله ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا؛ لما يعلمون من كراهته لذلك)، أخرجه الترمذي.

فالقيام فيه تعظيم للدَّاخل وإظهارُ المحبَّةِ له، ومع ذلك تركه الصَّحابة رضي الله عنهم لما يعلمون

من كراهيته ﷺ لذلك. فهل يقال: إنَّ الصَّحابة لا يحبُّونه ﷺ؟!. حاشاهم من ذلك.

ثمَّ إنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام حذَّر من الغلوّ في الدِّين، وإطرائِهِ ﷺ إطراءً يفضي إلى الشرك بالله.

قال ﷺ: «لا تطروني كما أَطْرَت النَّصارى ابن مريم، إنَّما أنا عبد، فقولوا: عبد اللَّهِ ورسوله». رواه مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

• • •